المحاضرة السابعة: جيلالي اليابس

موقف جيلالي ليابس من العقلانية:

يعتقد جيلالي ليابس أن العقلانية تأخذ معناها وقوتها من الإطار الذي يُعطى للعقل، والسياق التاريخي الذي تحدد فيه الأهداف التي نسعى لتحقيقها، والخصائص النوعية التي يظهر من خلالها العمل البشري والإنتاج الاجتماعي كقاعدة موضوعية. بالإضافة إلى ذلك، هناك العلاقات الاجتماعية التي تنشأ أو تُفترض. ويشدد ليابس على أن العقلانية تعكس مذهب التعدد والتنوع في فهم الواقع، وهي مرتبطة بالتطور الصناعي والعلمي والتاريخي للمجتمع. لذا، لا يمكن فصل العقلانية عن التطور التاريخي بكل أبعاده: الصناعية، الأيديولوجية، الاجتماعية، والاقتصادية. أي محاولة لفصل هذه العناصر ستفقد العقلانية جدليتها وتنوعها، وتغفل حقيقة أن التقدم لا يحدث بمعزل عن سياقه التاريخي. كما يرى أن البشرية لا تطرح سوى القضايا التي يمكن الإجابة عليها في سياقها الواقعي، وأن القفزات الفكرية دون تراكمات هي أمر مستحيل وتمثل رؤية أيديولوجية بعيدة عن الواقع الذي نعيشه.

يعتبر ليابس أن التاريخ مبني على عقلانية الواقع وواقعية العقل، حيث يُعتبر التاريخ مجالًا للضرورة ومحكمة للعقل، وهو تعبير عن الروح الإنسانية ونموها في العالم، وتوقيع ممكنات على حساب أخرى. لذلك، يؤكد على نسبية الحقيقة وعدم مطلقيتها، ويعتقد أن دور النخب الوطنية هو بناء حقائقنا الخاصة. فالتغيير يبدأ من الذات أولاً ثم يمتد إلى المحيط.

يمارس ليابس نقدًا عميقًا للمفاهيم، محذرًا من التحريفية (Denaturation) التي تمارسها الأنظمة، والتي تؤثر بشكل مباشر على تلك المفاهيم. ويعتقد أن كل مفهوم يجب أن يُفهم في سياق عصره، حيث أن التطور التاريخي يؤدي إلى تغييرات في المفاهيم. بناءً على خلفيته السوسيولوجية، يؤمن ليابس بأن الإنسان يتصرف وفقًا لمصالحه وميوله وأحكامه المسبقة، حيث تتشكل أفكاره تحت تأثير قوى ثقافية واجتماعية وبيولوجية ونفسية تتجاوز سيطرته، على عكس ما أكدت عليه فلسفة التنوير التي شددت على استقلالية الإنسان في تشكيل أفكاره. وبالتالي، يرى ليابس أن العقلانية نسبية وخاصة، لأنه طالما أن الأحكام والأفكار محددة مسبقًا بقوى خارجية، فإن ذلك ينفي مصداقية أي حكم أو فكرة مقارنة بأخرى. فكل أشكال العقلانية متساوية، ولا توجد عقلانية صحيحة وأخرى خاطئة.

ويشير ليابس إلى أن المدافعين عن المذهب العقلي غالبًا ما يكتفون بدراسة واقع لا يعرفونه بعمق، بينما يعتمد أنصار المذهب الواقعي على تبسيط المعلومات بشكل مباشر. وهكذا، نجد اتجاهات عقلانية متعددة، مثل العقلانية الديكارتية، الهيغلية، الوضعية، التجريبية، البراغماتية، والعقلانية الكانطية. ويعتقد أن العقلانية الكلاسيكية اختلفت في البديهيات والمبادئ، مما أدى إلى نتائج مختلفة. وقد أدت هذه العقلانيات إلى ظهور عقلانية دينامية منفتحة أعادت النظر في المبادئ الأساسية.

يتبنى ليابس وجهة نظر باشلار حول العقل، حيث يعتقد أن العقل ليس شيئًا ثابتًا، بل هو متعدد ومتغير حسب مجالات المعرفة المختلفة. إنه بناء يتطور مع تغيرات المعرفة والواقع. لذلك، العقلانية المعاصرة لا تؤمن بوجود مذهب واقعي أو عقلي مطلق، بل ترى أن العقل يتفاعل مع الواقع بطريقة نقدية، مما يزيل الحدود بين ما هو عقلي وما هو غير عقلي. في بعض الأحيان، يمكن أن يتحول العقل إلى شيء غير عقلاني، بينما قد يكون غير العقلاني جزءًا من العقل نفسه.

عناصر العقلانية في فكر جيلالي ليابس:

يعتقد ليابس أن العقلانية السائدة في الخطاب الفكري المعاصر تقتصر على الشكل التجريبي، لكنه يرى أن هذه التجريبية متأخرة عن تلك التي تهدف إلى تراكم معرفي يتحول إلى أيديولوجيا. في المقابل، يستخدم الخطاب السياسي المعاصر الدوغمائية المذهبية ويقدمها كحل مثالي، على عكس التجريبية التي تعاني من نقص. يرى ليابس أن التجربة العلمية هي تطبيق للعقل، وأن الفكر هو عامل تطور عندما ينقد الواقع. فالعقلانية ذات طابع ممارساتي، حيث تنفي التعريفات الفلسفية للعقل تناقضات الواقع المدرك. لكل ثقافة معقوليتها الخاصة، ولكل نظام معرفي عقلانيته الخاصة، مما يتعارض مع العقلانية الغربية التقليدية.

لا يسعى ليابس لتقديم تعريفات إبستمولوجية للعقلانية، بل يراها كمجموعة من الفعاليات الذهنية التي تحكم رؤية الإنسان للعالم وتعامله معه. يركز على الانتقال من سؤال الماهية إلى سؤال الكيفية، حيث يصبح المنهج أساسًا للفكر والعمل. وبهذا، تتميز عقلانية ليابس بتركيزها على المنهج كمدخل لفهم العقلانية. فالعقلانية في فكره ذات مستويين: الأول يتعلق بإنتاج الأفكار واتساقها مع الواقع، والثاني يتعلق بممارسة هذه الأفكار في الواقع. تكمن فعالية العقل في ارتباطه بالتجربة، حيث يمكن تطبيق مقولات الفهم. أما ما يتجاوز التجربة، كموضوعات الميتافيزيقا، فلا يمكن للعقل الخالص أن يتعامل معه.

لقد تناول يابس الفكر الأوروبي بنهج نقدي موضوعي، حيث قام بتحليل التجريبية والفلسفة الوضعية بشكل نقدي. هذه القراءة جعلته يربط بين العقلانية والتجريبية، ويعتقد أن الفكر يتشكل من خلال التجربة. فالعقلانية بالنسبة له هي مزيج بين العقل والتجربة، حيث يتفاعل العقل مع الواقع المتغير. ويعتبر أن العقلانية هي عملية مستمرة من التعرف، تعتمد على انفتاح الذات على العالم والتاريخ من خلال العمل والممارسة. في رأيه، العقلانية هي فكرية في المقام الأول وواقعية في المقام الثاني، وهي مستندة إلى مبدأ هيغل: "كل ما هو واقعي عقلاني، وكل ما هو عقلاني واقعي".

العقلانية في الجزائر:

يرى ليابس أن العقلانية في الجزائر ليست مجرد نتاج طبيعي للأيديولوجيا، بل هي مشروع دولة بحد ذاته. العقلانية التي نشهدها في الجزائر لم تكن مدعومة بسياق سياسي أو فكري يتيح فهمها بشكل صحيح. بل ظهرت كعملية استيراد لنظريات وأفكار جاهزة، بعيدة عن سياقها الاجتماعي. وهذا ما جعلها غير قادرة على النمو إلا بقدر ارتباطها بمصدرها

الأصلي. نتيجة لذلك، عانت الجزائر من نقص في الإبداع الأصيل، حيث اقتصرت محاولاتها على إعادة صياغة القيم والأفكار المنقولة بشكل محلي.

الحركة الوطنية سعت إلى إعادة إنتاج المعرفة بالذات من خلال مشروع الدولة الوطنية، الذي كان يمثل نموذج النهضة. لكن هذا المشروع واجه تناقضات داخلية، حيث حاول التعامل مع الواقع من منظور أيديولوجي، لكنه فشل في تجاوز مرحلة الاستقلال. وانتهى الأمر به سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا بسبب عدم قدرته على قطع الولاءات القبلية والجهوية، وعدم وضع خطة واقعية للتنمية.

لقد اعتبر ليابس أن التحدي في التوفيق بين التراث الثقافي والإنجازات الفكرية الأوروبية كان عقبة أمام السياسيين والمفكرين في الجزائر. حاولوا استكشاف آفاق جديدة، لكنهم لم يتمكنوا من بناء نظام معرفي أصيل. هذا الأمر أدى إلى اعتمادهم على نموذج العقلانية الغربية دون أي تمحيص نقدي، مما جعل الجزائر غير قادرة على إيجاد حلول تناسب واقعها. وبدلاً من تعزيز أسس نقدية مستمدة من تاريخها وثقافتها، انزلق المجتمع نحو الحلول السهلة والمستوردة، مما أدى إلى عدم تحقيق التقدم الحضاري.